الكتابة عند العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام

الدكتور إ . ك . أحمد كوتي

إن النظرية التي تقول بأن العرب في العصر الجاهلي ـ وفي صدر الإسلام أيضا ـ كانوا أميّين لايعرفون القراءة والكتابة قد صارت بفضل تكرارها الدائم حقيقة مُسَلَّماً بها ، ورسخت في قلوب الناس رسوخاً لايزعزع .

ولكننا اذا درسنا تاريخ الأمة العربية تبيّنا أن هذه الفكرة ليست من الحق في شيء ، وأن العرب كانوا على حظ كبير من معرفة القراءة والكتابة ، والأدلة التاريخية تثبت هذه الحقيقة اثباتا لايقبل الجدل .

والحق ان جميع الأمم السامية ـ ومنها العرب ـ لم تكن تعرف القراءة فقط بل كانت عارفة فن الكتابة وممارسة لها أيضا . فيقول الأستاذ سارياس (Sayace) « إن احدى نتائج كشف سجلات الماضي هذه وفك طلاسمها كانت اثبات قدم فن الكتابة ، ففنُّ الكتابة في الشرق كان مناظرا ومعاصرا لمشرق الحضارة وبزوغ شمس العمران . كان هذا الفن جزءا أصيلا من الثقافة الشرقية الباكرة ، سايرها ورافقها على الزمان تَوْأَمَين لايفترقان ، فكان يصطنع لأداء أغراض سياسية أحقابا طويلة قبل مولد ابراهيم في « أور » مدينة الكلدانيين ، وقد أسست المكتباتُ وحُجُراتُ الملفات على ضفاف الفرات والنيل جميعاً » . « ومن أقدم مقطوعات الأدب المصري التي انحدرت الينا رسالةٌ في الأخلاق أُلّفت في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عهد الأسرة الثالثة ، وبعضٌ ملاحم بابل ترجع إلى زمان اقدم من زمان حمورابي المعاصر لابراهيم ، وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت القصة المصرية قد مرت بعصر من عصور الازدهار في مصر ، وكان العلماء البابليون قد كتبوا في الفلك والرياضيات قبل أن يؤّسس سارغون الأكادي أول امبراطورية سامية في مستهل الألف الثالثة قبل الميلاد[١]» .

ان كان هذا هو أمر الساميين فلم يكن العرب استثناء لهذه القاعدة العامة . فكيف يمكن ان يكون العرب أمة من الأميين مع أنه « يمكن أن يدعي مدّعٍ ، وله سند من عقل ومنطق ، أن الحروف المكتوبة بها النقوشُ العربيةُ الجنوبيةُ قد تكون هي الحروف الأصلية التي بنيت عليها الهجائية الفينيقية ، فهي لذلك ام الكتابات الهجائية في هذا العالم[٢] » .

الكتابة في العصر الجاهلي

وربما يقال إن هذه قصة الماضي السحيق ، وماذا عن العصر الجاهلي الذي نعرفه في التاريخ ؟

ان العصر الجاهلي لم يخل من الكتابة بل كان عهد العرب بالكتابة أمراً تثبته الحقائق التاريخية .

وكانت في الجاهلية مدارس في أماكن مختلفة بجزيرة العرب ، مثلا

---

(١) HARMSWORTH : HISTORY OF THE WORLD , Vol . iii , P. 1556

نقلا عن تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري لنجيب محمد البهبيتي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٧ ، ص ١٩٣ .

(٢) PHILBY : the Background of Islam , P. 10

نقلا عن تاريخ الشعر للبهبيتي ص ١٩٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مكة والطائف[٣] والأنبار[٤]والحيرة[٥] ودومة الجندل[٦] والمدينة[٧] وقبيلة هذيل[٨] ، وكان البنون والبنات يتعلمون القراءة والكتابة في هذه المدارس .

وكان العرب يكتبون العهود والمواثيق التي كانوا يعقدونها فيما بينهم ومع غيرهم من الأمم المجاورة فيقول الجاحظ : « وأقول : لولا الخطوطُ لبطلت العهود والشروط ... ولتعظيم ذلك ، والثقة به ، والاستناد اليه كانوا يَدْعون في الجاهلية مَنْ يكتب لهم ذكرَ الحلف والهدنة ، تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارثُ بن حلّزة في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما (م) قُدّم فيه العهودُ والكفلاءُ
حذر الجور والتعدّي وهل ينـ ـقضُ ما في المهارق الأهواءُ

والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولايقال للكتب مهارق حتى تكون كتبَ دين ، أو كتب عهود وميثاق وامان[٩] » . ومن هذه العهود ماكان بين العرب وبين غيرهم من الأمم ، فالمطلب أكبر أبناء عبد مناف « هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها إلى أرضه ، وهاشم بن عبد مناف ، واسمه عمرو ، هو الذي عقد الحلف لقريش من

(٣) فتوح البلدان لأحمد بن يحي البلاذري ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥٧٩[ص ٤٥٧ ، القاهرة ١٩٥٩] .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ ص ٤٣

(٥) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٧٩ [ص ٤٥٧ ، القاهرة ١٩٥٩] .

(٦) المحبر لمحمد بن حبيب البغدادي ، حيدر اباد ١٣٦١ / ١٩٥٥ ص ٤٧٥

(٧) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣ ، [ص٤٥٩ ـ ٤٦٠] .

(٨) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ١٠٣ .

(٩) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٥ [ج ١ ص ٦٩ ـ ٧٠ ط ١٩٦٩]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هرقل لأن تختلف إلى الشام آمنة[١٠] » . واشتملت تلك المواثيق المكتوبة على العهود الشخصية والقبلية والمعاملات المالية والتجارية والمراسلات الشخصية ودوّن العربُ بعض الوقائع التاريخية في بعض الأحيان ، وكانوا يدوّنون أنساب القبائل أيضاً[١١] .

وكان هناك أيضاً شيء من الأدب الديني المكتوب ، فمن الكتب الدينية التي كتبت في الجاهلية كتاب دانيال[١٢] ، وكتب الحكمة[١٣] . ومن المحتمل أن جزءاً من الانجيل كان قد نقل إلى العربية . ومن الذين كتبوا في الجاهلية ورقة بن نوفل وهو الذي اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين وقرأ الكتب وكان امرأ تنصر ... وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء أن يكتب[١٤] .

---

(١٠) الطبقات الكبير لابن سعد (في ٦ أجزاء) ليدن ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠ ج ١ ص ٤٥ [ج ١ ص ٧٥ بيروت ١٩٥٧] .

(١١) مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد طبعة ٢ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ ص ١٦٥ ، كتاب الأغاني ج ٤ ص ٢٣٧ .

(١٢) تقييد العلم لأحمد بن علي الخطيب البغدادي دمشق ١٩٤٩ ص ٥١ ـ ٥٢ [النص يشير إلى أن رجلاً من عبد القيس مسكنه بالسوس نسخ كتاب دانيال فاستدعاه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأمره أن يمحوه ... / المجلة] .

(١٣) مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ١٦٦

(١٤) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٤ [ج ٣ ص ١٢٠ ط دار الكتب المصرية] [جاء في صحيح البخاري ١ : ٣ « ... فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ... وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ... » ، وجاء في صحيح البخاري ٤ : ١٨٤ : « ... فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل وكان رجلاً تنصر يقرأ الانجيل بالعربية .... » ، وانظر ماجاء في فتح الباري ١ : ٢٨ ـ ٢٩ ، ٧ : ٢٣٣ ، وجاء في نسب قريش للزبير بن بكار (١ : ٤١١) : « ... حتى أتت به ورقة بن نوفل ... وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربيّ ، فيكتب بالعربية من =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان بين العرب رجال عرفوا اللغات الأعجمية وكتابتها أيضاً ، مثلا النضر بن الحارث عرف اللغة الفارسية وكتابتها ، « وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش .... وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار[١٥] » . ولم يقتصر علم الكتابة في الجاهلية على الرجال بل عرفتها النساء أيضا . ففاطمة بنت مُرّ ، كانت من أجمل النساء وأعفهن وكانت قرأت الكتب[١٦] .

اذا كان الأمر كذلك فهل من الممكن ان الشعراء الجاهليين مع اننا نعرف منزلتهم في أمتهم وامتيازهم بين العرب كانوا أميين لايقرؤون ولايكتبون ؟ إن الذي جعل بعض الناس يذهبون هذا المذهب هو القِصَصُ غير المعتمد عليها مثل قصة طرفة بن العبد والمتلمس وكتابيهما . من يستطيع أن يقطع بصحة هذه القصة وبانها ليست من قبيل القصص

= الانجيل ماشاء الله ان يكتب ... » ، وجاء في صحيح مسلم بشرح النووي ٢ : ٢٠١ ـ ٢٠٢ : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ... وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربيّ ، ويكتب من الانجيل بالعربية ماشاء الله أن يكتب ... »

وفي سيرة ابن هشام (١ : ١٧٥ ، ٢٢٢ بيروت ١٩٧٥) : « .. وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل ... وكان نصرانياً قد تتبع الكتب ... وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ... » . وفي المحبر لابن حبيب (ص ١٧١) : « وورقة بن نوفل ... تنصر واستحكم في النصرانية وقرأ الكتب ... » / المجلة] .

(١٥) سيرة ابن هشام (دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧١) ج ١ ص ٣٢١ [ج ١ ص ٢٦٥ بيروت ١٩٧٥] .

(١٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤ [ج ١ ص ١٤٤ الحاشية / بيروت ١٩٧٥] [تاريخ الشعر العربي للبهبيتي : ١٩٧ استناداً من سيرة ابن هشام على السهيلي ١ : ١٠٤] .

[وجاء في فتوح البلدان للبلاذري : ٤٥٨ ، القاهرة ١٩٥٩ : « وحدثني بكر بن الهيثم ... عن عبيد الله بن عبد الله بن عقبة أن النبي ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب : الا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ، وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية » / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعبي الذي يصاغ حول حياة الأبطال ؟ أو من يستطيع أن يقطع ـ إن صحت الرواية ـ بان هذين الكتابين كانا مكتوبين بلغة عربية أو لغة معروفة لهذين الشاعرين ؟ أليس محتملاً أن يكون الكتابان قد كتبا بالفارسية ، فحال ذلك بين الشاعرين وقراءتها حتى عثرا على ذلك الغلام الحيري ؟[١٧] .

وأما القول انه لم يكن في مكة عند ظهور الإسلام إلا سبعة عشر شخصاً يعرفون القراءة والكتابة[١٨] فيبدو غريبا ومغالىً فيه ، خصوصا لما نعرف ان مكة كانت مدينة جامعة لامم العالم المختلفة وسوقا عالميا وملتقى الطرق التجارية[١٩] .

تدوين الشعر في الجاهلية

ومن الأدلة التي تثبت شيوع الكتابة بين عرب الجاهلية أنهم كانوا يُدوّنون أشعارهم ، وهي من أخلد آثارهم الثقافية والحضارية . وأما النظرية التي تقول بأن رواية الشعر الجاهلي كانت عن طريق التناقل الشفهي ، لاعن طريق الكتابة والتسجيل فهي أسطورة لاأساس لها ، والحق ان تدوين الشعر كان أمراً مألوفا في الجاهلية ، ومن دلائل هذه الحقيقة تدوين القصائد المطولة الجاهلية المشهورة باسم المعلقات » . وهناك أخبار كثيرة تفيد بأن هذه القصائد كانت قد كتبت فيقول ابن عبد ربه : « وقد بلغ من كلف العرب به (أي الشعر) وتفضيلها له ان عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في

(١٧) تاريخ الشعر العربي لنجيب محمد البهبيتي ص ١٩٧ .

(١٨) العقد لابن عبد ربه ، القاهرة ١٣٥٩ / ١٩٤٠ ، ج ٤ ص ١٥٧ ، فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٠ [ص٤٥٧ ، القاهرة ١٩٥٩] ، طبقات ابن سعد ج ٣ / ١ ص ٧٧ ، ١٤٨

(١٩) M. M. AZMI : Studies in Early Hadith . Literature (I Edition , AL Maktabad - Islami Beirut 1968) , P . 1

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القباطيّ المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير . والمذهباتُ سبع ، وقد يقال لها المعلقات[٢٠] ويقول ابن خلدون : « ... حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم باركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس ...[٢١] » . ويقول ابن رشيق : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطيّ بماء الذهب وعلقت على الكعبة .... ذكر ذلك غير واحد من العلماء[٢٢] » ويذكر ابن رشيق سبباً آخر من أسباب تسمية القصائد بالمعلقات وهو مايقوّي فكرة تدوين الشعر الجاهلي : « كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون في خزانته[٢٣] .

إن تدوين الشعر في الجاهلية لم يقتصر على المعلقات بل كانت القبائل تكتب أشعار شعرائهم[٢٤] . ويؤكد حقيقة كتابة الشعر في الجاهلية ماجاء في طبقات الشعراء لابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (أي الشعر الجاهلي) ديوان فيه اشعار الفحول ومامدح به هو وأهل بيته فصار ذلك الى بني مروان أو ماصار منه[٢٥] » .

وواضح مما تقدم ان الكتابة كانت مستخدمة في حفظ الآثار الشعرية الجاهلية . والآن نلتفت إلى العصر الإسلامي .

---

(٢٠) العقد ج ٢ ص ٩٣ [ج ٥ ص ٢٦٩ ، القاهرة ١٩٤٦]

(٢١) المقدمة ج ٢ ص ٧٥٥ ، تونس ١٩٨٤ .

(٢٢) العمدة ج ١ ص ٦١ [ج ١ ص ٧٨ ، القاهرة ١٩٣٤] .

(٢٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٢٤) انظر كتاب مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ١٠٧ ـ ١٣٣

(٢٥) ص ١٠ [ج ١ ص ٢٥ تح محمود محمد شاكر / القاهرة ١٩٧٤] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتابة في صدر الإسلام

إن ظهور الإسلام في جزيرة العرب رفع شأن الكتابة وزاد في انتشارها ، ومما لايحتاج إلى شرح طويل ان الإسلام حث الناس على كسب العلم والقراءة والكتابة حثا ليس له نظير في أي دين من الأديان السماوية ، وأول ماتلقّى النبي ﷺ من الوحي الالهي هو مايدعو الناس إلى القراءة والكتابة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم ﴾[سورة العلق ، آية ١ ـ ٥] ، وليس هناك كتاب سماويٌّ حافل بذكر العلم والحث عليه وذكر القراءة والكتابة مثل القرآن ويقسم الله في القرآن بالقلم : ﴿ ن ، والقلم ومايسطرون ﴾ [سورة القلم ، آية ١] وذكر القلم ايضا في هذه الآية : ﴿ ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفِدت كلماتُ الله إنّ الله عزيز حكيم ﴾[سورة لقمان ، آية ٢٧] ، فليس في كتاب من الكتب المقدسة من ذكر الكتابة وأدواتها وحروفها مثل ما هو بالقرآن أو قريب منه .

وان النبي ﷺ وهو الذي حمل هذا القرآن الى الناس طبّق تعاليمه عن القراءة والكتابة تطبيقا عمليا ، وهناك أحاديث كثيرة تدعو الناس الى طلب العلم وتعلم القراءة والكتابة لاداعي الى احصائها هنا : أمر النبيُّ ﷺ الوالدين أن يعلموا أولادهم ، وأمر الذين يعرفون العلم والذين لايعرفون أن يتعاونوا في طلب العلم ، وأوصى الذين ليس لهم علم ان يتعلموا من جيرانهم الذين يعرفون العلم .

ولم يكتف النبي ﷺ بالأوامر والوصايا بل أفرغها في قالب عملي ، فأرسل المعلمين إلى كل بلد من البلاد التي بلغتها دعوة الاسلام ليعلموا الناس هناك ومنهم أربعون معلّما قُتلوا في حادثة بئر معونة ، ومنهم من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أُرسلوا إلى نجران واليمن . وقد بدأ النبي ﷺ يبعث المعلمين إلى أقوام مختلفة قبل الهجرة ، ومن هؤلاء المعلمين مصعب بن عمير ، وعبد الله بن أم مكتوم .

وكان جزء من مسجد النبي ﷺ بالمدينة قد خُص ليكون مدرسة ، وعين فيها عبد الله بن سعيد بن العاص معلّما يعلم الأولاد الكتابة[٢٦] . ونقرأ في سيرة النبي ﷺ أن بعض أسارى بدر أطلقوا على أن يعلّم كل واحد منهم القراءة والكتابة عشرة غلمان من غلمان المدينة[٢٧] .

وكانت نتيجة هذا النشاط العلمي والتعليمي أن علم الكتابة انتشر في جزيرة العرب كلها قبل السنة العاشرة للهجرة . والدليل على هذا أن القرآن فرض على المسلمين أن يكتبوا كل معاملاتهم المالية[٢٨] . ونقرأ في كتب التاريخ أسماء عدة من الكُتاب الذين كانوا يكتبون للنبي ﷺ وكان عددهم نحو خمسين[٢٩] .

وهؤلاء الكتبة كانوا موكلين بكتابة أمور مختلفة كالرسائل لرؤساء القبائل ، وحساب الزكاة ، وحساب الضرائب غير الزكاة ، وحساب الأثمار[٣٠] . وكان لكُتاب الرسول رئيس وهو موكل بخاتمه ومسؤول على إجابة الرسائل في أثناء ثلاثة أيام[٣١] . وهؤلاء الكتبة كانوا يعرفون بعض

(٢٦) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ١٣٥٨ / ١٩٣٩ رقم ١٧٧٧ .

(٢٧) طبقات ابن سعد ج / ٢ / ٢ ص ١٤ [ج ٢ ص ٢٢ ، بيروت ١٩٥٧] .

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٢٩) التراتيب الادارية للكتاني ، الرباط ١٣٤٦ ج ١ ص ١١٥ .

(٣٠) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٦ ، فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١ ـ ٥٨٣ ، العقد لابن عبد ربه ج ٤ ص ١٦١ ـ ١٦٢

(٣١) العقد لابن عبد ربه ج ٤ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغات الأجنبية وخطها أيضا لكي يستطيعوا أن يكاتبوا الأمم الأخرى غير العرب[٣٢] . وقد وردت أخبار هؤلاء الكتبة في كتب شتى ، وكانت بينهم نساء أيضا . وأسماء بعضهن واردة في طبقات ابن سعد[٣٣] وفتوح البلدان للبلاذري[٣٤] .

وان عادة تسجيل الجنود المبعوثين في الغزوات قد ابتدأت في عهد النبي ﷺ نفسه ، ولو كان الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي جعله في ديوان رسمي فيما بعد .

ويتضح مما تقدم أن الأمة العربية قطعت أشواطاً بعيدة في سبيل الكتابة والتدوين ، وتحرّرت من قيود الأميّة في أسرع وقت ممكن .

ولنلتفت الآن إلى عهد الخلفاء الراشدين وصدر عهد الأمويين وهي مدة قرن ونصف .

إن الإسلام اجتاز حدود الجزيرة العربية وأخذ ينتشر في البلاد الأجنبية انتشاراً سريعاً بفضل الدعوة والفتوح ، خصوصا في عهد عمر بن الخطاب . وقد أدى انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية إلى ازدياد النشاط العلمي الذي ابتدأه رسول الله ﷺ قوة واندفاعاً ، ومما قوّى هذه النهضة العلمية حاجة الأمة الإسلامية إلى الولاة وقادة الجيش وكتبة الدواوين والحُسّاب والقضاة والفقهاء ومعلمي القرآن . وإن الحلقات العلمية التي أسست من قبل في عهد النبي ﷺ بالمدينة ومكة والطائف وصنعاء والبحرين قد توسعت وازدهرت في عهد الخلفاء الراشدين . وأسس بعض

(٣٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣ [ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ، القاهرة ١٩٥٩] .

(٣٣) ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٣٤) ص ٥٨٠ ـ ٥٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصحابة مراكز علمية جديدة في عواصم البلاد المفتوحة كالبصرة والكوفة وحمص ودمشق والفسطاط ، إما بأمر عُمر أو من عند أنفسهم[٣٥] .

وأرسل الخليفة عمر بن الخطاب في النصف الثاني من خلافته ، جماعة من الصحابة إلى البصرة مع أبي موسى الأشعري الذي كان واليا عليها ليعلم أهلها القرآن[٣٦] وأيضا في سنة ٢١ هـ / ٦٣١ م أرسل عمر عبد الله بن مسعود إلى الكوفة ليعلّم القرآن لأهلها[٣٧] .

ومن المحتمل أن الدروس في هذه الحلقات لم تقتصر على القرآن والحديث والفقه ، بل عُلمت فيها الكتابة أيضاً . وإلى جانب هذه الحلقات كانت هناك مدارس مخصصة للأطفال يتعلمون فيها القراءة والكتابة وشيئاً من مبادئ علم الحساب . وقيل ان زيد بن ثابت صاحب النبي المشهور كان قد حضر أحد هذه المكاتب وقد وردت في كتب التاريخ أسماء بعض النصارى الذين كانوا يعلّمون الأطفال بالمدينة في خلافة عمر ، وهم أسارى أُخذوا في غزوات الشام ، ومنهم رجل اسمه جفينة وبعض نصارى بيزنطيين[٣٨] .

وروي ان عددا كبيرا من غير المسلمين حضروا هذه المدارس ليتعلموا القرآن والفقه الإسلامي طمعا بالحصول على المناصب الحكومية والمنزلة الاجتماعية ، وبعد تخرجهم من هذه المدارس أسسوا مدارسهم في أمكنة مختلفة[٣٩] .

(٣٥) K. A . FARIQ : History of Arabic Literature (ViKas Publications , Delhi 1972) P . 103

(٣٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٧) نفس المصدر ص ١٠٤

(٣٨) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٥٦ ؛ فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٩ .

(٣٩) K . A . FARIQ : History of Arabic Literature , P . 104

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وازداد النشاط العلمي في عهد الخليفتين عثمان وعلي لأن الموالي أقبلوا على تعلم اللغة العربية وقراءتها وكتابتها ليؤهلوا أنفسهم للمناصب كالمعلمين وأمناء الخزانة والحسّاب والكتبة في الدواوين وكتاب الرسائل والمعاونين في ديوان الحكومة(٤٠) .

والخليفة عُمر هو الذي وضع الديوان الرسمي في الإسلام ولو ان النبي ﷺ قد ابتدأه في حياته كما تقدّم . وجمع عُمر كل العهود التي عقدها مع القبائل والدول الاجنبية وصانها في تابوت(٤١) ، وكان هناك بيت ملحق بدار الخليفة عثمان بن عفان يسمى « بيت القرطاس » وربما كان مخزن الأوراق الحكومية(٤٢) .

وهناك أدلة تثبت أن تأليف سيرة النبي ﷺ قد ابتدأ في هذه المدة ، والذين ألفوا أولا في هذا الباب بعض صحابة النبي ﷺ في صدر الإسلام(٤٣) . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب حوادث تاريخية . ومن المحتمل أن الأحاديث التي رواها عمرو بن شعيب (ت ١١٨ هـ) مأخوذة من تأليف عبد الله بن عمرو هذا لأنه كان جده(٤٤) . ويذكر عروة (ت ٩٣ هـ) في كتابه في سيرة النبي ﷺ الثقات الذين أخذ عنهم . وربما وردت الروايات إليه في صورة مكتوبة ، لأن هناك إشارات إلى الكتب التي ألفت في السيرة في هذا العهد وهي تتناول جوانبَ مختلفة من سيرة رسول الله ﷺ(٤٥) . وهناك أيضاً إشارات إلى

(٤٠) نفس الكتاب ص ١٠٥

(٤١) M . M . AZMi : Studies in Early hadith Literature , P . 16

(٤٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٤٣) طبقات ابن سعد ج ٢ / ٢ ص ١٢٣ .

(٤٤) AZMI : studies in Early Hadith Literature P . 7

(٤٥) Studies in Early Hadith Literature , P . 7

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصحف التي جُمعت فيها رسائل النبي ﷺ[٤٦] . وكل هذه الكتب ألفت في عهد النبي ﷺ أوبعد وفاته بقليل ومؤلفوها كانوا الصحابة الكرام أنفسهم .

ويقول صاحب الأغاني : إن رجلا اسمه عبد الحكم بن عمرو الجُمحي أسس في منتصف القرن الأول للهجرة مكتبة عامة اشتملت على الكراسات التي تتناول موضوعات مختلفة وأدوات ألعاب متعددة ، وأن الناس كانوا يأتون إليها للقراءة والتسلية[٤٧] . وفي نحو هذا الزمان كانت لابن أبي ليلى مكتبة اشتملت على نسخ القرآن لاغير واجتمع الناس بها ليلا للتلاوة[٤٨] . وقد ورد في كتب التاريخ أيضا خبر مكتبة في مِلْكِ خالد بن يزيد بن معاوية[٤٩] . وكانت قد أسست بعد المكتبتين المذكورتين آنفا ، ومن المحتمل أن كانت هناك مكاتب أخرى في هذا العهد لانعرف تاريخ نشأتها بالدقة .

رأي جرجي زيدان والرد عليه

ومن الغريب إذاً أن جرجي زيدان قال : « فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذ[٥٠] » . ورأيه هذا لاأساس له . فكيف يمكن أمةً حث دينها على التعليم والكتابة والقراءة حثاً لامثيل له في تاريخ الاديان وبذلت في نشر العلم والكتابة أقصى جهودها أن تظل طوال قرن بلا كتاب مدون إلا

(٤٦) نفس الكتاب ص ٨

(٤٧) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٢٥٣

(٤٨) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٧٥ [ج ٦ ص ١١٠ ، بيروت ١٩٥٧] .

(٤٩) Studies in Early Hadith Literature , P . 16

(٥٠) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان مطبعة الهلال سنة ١٩٣١ ج ٣ ص ٥٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القرآن ؟ وخصوصا حين يعترف جرجي زيدان نفسه أن الكتابة كانت شائعة يومئذ .

وفضلا عن الكتب المدوّنة المذكورة آنفا هناك إشارات إلى بعض الكتب التي كان يقرؤها معاوية . روي أن معاوية بن أبي سفيان كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مُرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرؤون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسات[٥١] .

وتعليقا على هذا الخبر يقول زيدان : « والغالب في اعتقادنا أن تلك الكتب في اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال ، وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية ، لان العرب لم يدوّنوا الكتب إلاّ بعد زمن معاوية[٥٢] » .

وهذا التأويل لاداعي له ولادليل . فكَوْنُ مُعاوية لم يقرأ هذه الكتب بنفسه ، بل كان يقرؤها الغلمان له لايوجب ان تكون الكتب غير عربية ، وليس هناك أدلة إيجابية تؤيد هذا الرأي .

---

(٥١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٥٢ [٢ : ٤٠ ـ ٤١ ، ط القاهرة ١٩٦٤ م] .

(٥٢) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج ٣ ص ٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net